الفصل الرابع

البطالة

* الهدف تحقيق العمالة الكاملة .
* مسئولية الدولة عن العمل .
* العمل فى العالم الاسلامى .

الهدف تحقيق العمالة الكاملة

يقول اللورد « جون مينرد كينز » فى كتابه « النظرية العامة للعمالة والفائدة والنقود » : « .. ان هدف كل نظام اقتصـادى هو تحقيق العمالة الكاملة ويذكر أن من ضمن الوسائل ـ التى تعين على تحقيق هذا الهدف ـ تخفيض سعر الفائدة على النقود الى أن يصل الى صفر لأن سعر الفائدة عامل معوق للتقدم بما يضعه من قيود ثقيلة على رغبة صاحب العمل فى التوسع وزيادة رأس المـال المستثمر » .

وما يقوله اللورد كينز قرره الاسلام منذ أربعة عشر قرنا عندما حرم الربا بأنواعه ولم يسمح بأى نسبة منه **« فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »**(١) ..

لكن غاب عن لورد كينز طبيب الرأسمالية فى القرن العشرين شمول الاسلام لنظم الحياة فلم يعرف العلاج الاسلامى الفعال أو الشق الآخر من العلاج والذى تعترف به النظريات الاقتصادية الحديثة ضمنا عندما تقرر أن السوق المحلية هى أضمن الأسواق ويجب أن تكون أيضا أوسع الأسواق ..

ويعمل الاسلام على تحقيق سعة السوق المحلية بتوسيع قاعدة الاستهلاك عن طريق :

١ ـ الزكاة وهى ركن من أركان الاسلام أوجب على الغنى أن يدفعها وأوجب على الدولة أن تخصص لها ميزانية منفصلة عن ميزانية الدولة العامة كما أوجب أن تصرف فى مصارفها المحددة وأولها الفقير والمسكين ليكونوا قوة شرائية متزايدة فى السوق .

٢ ـ نظام المواريث الذى يفتت الثروات ويزيد فى عدد الملاك وبذلك يرتفع مستوى الدخل عند أعداد متزايدة من أفراد الأمة .

وكلما اتسع نطاق السوق المحليـة بزيادة الاستهلاك كلما نشـط المنتجون من زراع وصناع لتوسيع أعمالهم وزيادة انتاجهم مما يزيد فرص العمل المتاحة للناس .

---

(١) البقرة : ٢٧٩

والاسلام لا يكتفى بهذا بل انه يحارب كنز المال ويعمل على أن يدفع بكل مليم الى ميدان الانتاج وما الزكاة والصدقات الا حافز لرؤوس الأموال على الخروج الى ميادين العمل المختلفة حتى لا تأكلها الصدقة ..

وان ولى اليتيم مطالب فى الاسلام أيضا بأن ينمى مال اليتيم ولا يتركه كنزا معطلا .. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اتجروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة » ..

بل ان الاسلام لينذر صاحب الكنز بأشد العذاب يوم القيامة لأن الله ما استخلفه فى مال الله الا ليخدم به الخلق عيال الله فيعز أمة الله فى الأرض ..

يقول الحق تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »(١) .

ويقول سبحانه :

« كلا انها لظى . نزاعة للشوى . تدعوا من أدبر وتولى . وجمع فأوعى »(٢) .

ويقول الامام القرطبى تعليقا على رأى أبى ذر الغفارى رضى الله عنه الذى ذهب الى أن الكنز هو كل ما فضل عن حاجة الانسان وضروراته :

« وهو من شدائده — أى أبى ذر — وما انفرد به رضى الله عنه . فلت ويحتمل أن يكون مجمل ما روى عن أبى ذر فى هذا ما روى أن الآية نزلت فى وقت شدة الحجة وضعف المهاجرين وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم ولم يكن فى بيت المال ما يشبعهم وكانت السنون جوائح هاجمة عليهم فنهوا عن امساك شىء من المال الا قدر الحاجة . ولا يجوز ادخار الذهب والفضة فى مثل ذلك الوقت .

---

(١) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ (٢) المعارج : ١٥ — ١٨

فلما فتح الله على المسلمين ووسع عليهم أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مائتى درهم خمسة دراهم ، وفى عشرين دينارا نصف دينار ، ولم يوجب الكل واعتبر مدة الاستنماء فكان ذلك منه بيانا صلى الله عليه وسلم •

وقرر الشرع ضبط المـــال وأداء حقه • ولو كان ضبط المـــال ممنوعا لكان حقه أن يخرج كله وليس فى الأمة من يلزم هذا وحسبك حال الصحابة وأموالهم رضوان الله عليهم •

قلت هذا الذى يليق بأبى ذر رضى الله عنه أن يقول به : وأن ما فضل عن الحاجة ليس بكنز اذا كان معدا فى سبيل الله » •

ونعتقد أن هذا هو مقصود الاسلام وكما قلنا ان المفهوم هو اخراج المـــال من مخابئه ليعمـــل فى سبيل الله بفتح أبواب الرزق لخلق الله •

ولابن خلدون(١) رأى قيم فى مفهوم الكنز بالنسبة للدولة وما يجب عليها فى فوائض أموالها •• يقول :

« •• فاذا احتجن السلطان الأموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها فى مصارفها قل حينئذ ما بأيدى الحاشية والحامية وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق مما سواهم فيقع الكساد حينئذ فى الأسواق وتقل الأرباح فى المتاجر فيقل الخراج لذلك ، لأن الخراج والجباية انما يكون من الاعتمـــاد والمعاملات ونفاق ـــ رواج ـــ الأسواق وطلب الناس للفوائد والأرباح ، ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج ••

فان الدولة كما قلنا هى السوق الأعظم أم الأسواق كلها وأصلها ومادتها فى الدخل والخراج فان كسدت وقلت مصـــاريفها فأجدر بما بعدهـــا من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه •

---

(١) فيلسوف اسلامى عظيم سبق عصره ووضع أسس الكثير من العلوم الانسانية التى نظن خطأ أن للغرب السبق فيها كعلوم الاجتماع والاقتصاد والسكان •

٣ ــ عائد توظيف النقود فى القروض فى الاقتصاد الاسلامى يساوى صفرا وهو نفس عائد الاحتفاظ بالنقود فى سيولة كاملة مائة فى المائة .

٤ ــ عائد استثمار النقود بتزاوجها مع عنصر أو أكثر من عناصر الانتاج قد يكون ربحا أو خسارة وليس ثمنا فى جميع الأحوال .

٥ ــ الحافز على الاستثمار فى الفكر الاسلامى هو التنمية فان زكاة النقود تكاد تأكلها فلا يكون اخراج الزكاة من رأس المال بل من الربح . والادخار اعداد لسبيل الله والاستثمار انفاق فى سبيل الله أما الاكتناز وحبس النقود فهو صد عن سبيل الله وفى الحديث الشريف : « ثمروا أموالكم فان الزكاة تكاد تأكلها »(١) .

بينما فى ظل النظام الرأسمالى يعمل أصحاب الأعمال على تكديس فائض القيمة كاحتياطى لضمان رأس المال الثابت ثم يلجأون الى استخدام هذا الاحتياطى فى قروض قصيرة الأجل بفوائد ربوية .

وهما عيبان خطيران فى هذا النظام يحدان من فرص العمل وبالتالى زيادة الحاجة والفقر والبطالة .

وما يؤدى الى زيادة الحاجة والفقر والى زيادة البطالة يحرمه الاسلام ويمنعه ويجب على المسلمين أن يجتنبوه ايمانا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

وكفالة بيت المال فى النظام الاسلامى ليست فى كون هذا البيت يرعى شئون الزكاة والخراج وما اليها مما يجمع أو يصل اليه من أموال المسلمين ولكن مع ذلك وقبل ذلك فى أن يتيح فرص العمل ويمنع العوائق التى تحول دون أن تتاح لجميع الأفراد ولذا يسقط حد السرقة اذا لم يقم بيت المال باتاحة فرصة العمل للسارق أو اذا لم يرعه بما يسد حاجته وعوزه فى حياته اليومية .

لأن الأصل فى المسلم أن يعمل ويكتسب والاسلام يعتبر العمل عنصرا أساسيا من عناصر الانتاج ويجعل العمل ضربا من العبادة وكل

---

(١) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١

وأيضا فالمـــال متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا احتبسه السلطان عنده فقدته الرعية سئة الله فى عباده » ..

وقد أورد ابن خلدون نص الكتاب المشـــهور الذى كتبه طاهر ابن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لمـــا ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما .. عهد اليه فيه ووصـــاه بجميع ما يحتاج اليه فى دولته وسلطانه ومما كتبه فى هذا الكتاب وما نحن بصدده :

« .. واعلم أن الأموال اذا كنزت وادخرت فى الخزائن لا تنمو واذا كانت فى صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت به العامة وبرحت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة ..

فليكن كنز خزانتك تفريق الأموال فى عمارة الاسلام وأهله . وفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم ونعهد ما يصلح أمورهم ومعايشـــهم فانك ان فعلت قرت النعمة لك واستوجب المزيد من الله تعـــالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتك وخراجك أقدر وكان الجميع لمـــا شملهم من عدلك واحسانك أساس لطاعتك »(١) .

ويترجم هذا الـــكلام الدكتور شوقى اسماعيـــل شحاتة الى لغة الاقتصـــاد الحديث فى قوله عن العلاقة التى تحكم عرض النقود والطلب عليها فى غيبة نظام سعر الفائدة ووفقا للمبادىء الاسلامية : « ان هذه العلاقة تحكمها :

١ ــ حتمية تزاوج النقود مع عنصر أو أكثر من عناصر الانتاج لكى يكون لها نماء بالفعل وأن عائد الاستثمار يتحدد وفقا لمبدأ الغنم بالغرم ..

٢ ــ الاحتفاظ بالنقود يشكل تكلفة قدرها ٥ر٢٪ سنويا كزكاة نقود على الأرصدة النقدية المملوكة لصاحبها متى بلغت نصابا وحال عليها الحول .

---

(١) مفاهيم ومبادىء فى الاقتصاد الاسلامى لشوقى اسماعيل شحاتة ص ٣٩

وتتضح وجهة نظر الاسلام فى حق العامل المتعطل على الدولة مما رواه البخارى من « أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم يطلب صدقة فأمره النبى بالانتظار ثم دعا بقدوم ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ثم دفعها للرجل وأمره أن يذهب الى مكان معين ليحتطب ويكسب قوته وقوت عياله وطلب اليه الرسول أن يعود اليه بعد أيام ليخبره بحاله .. » وقد أفلح الرجل فى تحسين حاله ..

والرسول صلى الله عليه وسلم ما كان ينطق عن الهوى وكانت أعماله تشريعا لهذه الأمة وهديه هو ما أمرنا باتباعه لأن الله تعالى يقول :

« وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله »(١) ..

ويقول جل شأنه : **« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(٢) ..**

فيكون فى هذه الرواية عنه صلى الله عليه وسلم تشريع خطير للعمل يتفق مع مسئولية الدولة ومسئولية الفرد التى يقررها قول الرسول عليه السلام : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » ..

ونخرج من هذه الحادثة بالمبادىء الآتية :

الأول : أن المتعطلين كانوا يرون لهم حقوقا على الدولة فيذهبون الى ولى الأمر باسم هذه الحقوق ليدبر لهم أمرهم بما يراه .

الثانى : أن الدولة تقر المتعطلين على هذه الحقوق وتعترف بها ولا تنكرها عليهم بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمع الى شكاية الرجل ولم ينهره وأقره على حضوره ولم يطرده .

الثالث : أن الدولة لا تكتفى فقط بالاعتراف بحقوق المتعطلين بل تدبر لهم العمل فورا ولا تتركهم الى التسويف والمماطلة .. فقد رأينا الرسول عليه السلام لم يأمر الرجل بالانصراف الا بعد أن دبر له العمل والمكان الذى يعمل فيه وهذا أقصى ما تطمح اليه أنظار العمال فى العالم .

---

(١) النساء : ٦٤ (٢) الحشر : ٧

انســـان مرتهن بعمله ولذلك لا تحل الزكاة للقوى القادر على الاكتساب الا أن يكون كما يقول أبو عبيد : « مجدودا عن الرزق محارفا(١) وهو فى ذلك مجتهد فى السعى على عياله حتى يعجزه الطلب فاذا كانت هذه حاله فان له حينئذ حقا فى أموال المسلمين لقول الله تبارك وتعـــالى : **« والذين فى أموالهم حق معلوم ٠ للسائل والمحروم »(٢)** ٠

أو بعبارة أخرى وبلغة العصر يعانى من البطالة الاجبارية وقد نوهنا بذلك حتى لا يتبادر الى بعض الأذهان خطأ أن مصارف الزكاة للفقراء والمساكين تقضى على حافز العمل أو تضعفه ٠

* * *

(١) المحارف : من لا يصيب خيرا من وجه يتوجه له ٠
(٢) المعارج : ٢٤ ، ٢٥

حتى لا تسد فى وجه الطالب أبواب الرزق اذا لم يسعفه الحظ باتمام مراحل التعليم العـالى وحتى ننزع من نفوس الشباب الاستعلاء على مثل هذه الأعمال وان لنا دائما فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة فهو عليه السلام لم يستنكف من العمل كما عمل أصحابه ولو فى جمع الحطب أو حفر الخندق حول المدينة المنورة فى غزوة الأحزاب •

ولا ننسى ما أوجده الاسلام من حوافز أخرى للعمل والاعمار فى الأرض •• فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أحيا أرضا ميتة فهى له » •• ليدفع بالمسلمين الى العمل ويشجعهم على تعمير الأرض سواء بالزراعة أو البناء فيخلقوا بذلك فرص العمل لأنفسهم ويعمروا الصحراء المنتشرة حولهم ويصونوا أنفسهم من سوءات البطالة ومذلة الحاجة •

وخلاصة القول فى هذا الباب :

١ ــ أن الأصل فى الاسلام ألا بطالة للرجل السوى •

٢ ــ تحريم الكنز لتخرج أموال المسلمين لميادين النشاط الاقتصادى المختلفة فتخلق فرص العمـل للعباد •

٣ ــ مسئولية الدولة عن ايجاد العمل للمتعطلين •

٤ ــ التشجيع على الاحتراف •

٥ ــ حفز الناس على اعمار الأرض الميتة بتمليكهم اياها اذا أحيوها •

٦ ــ مسئولية بيت المـال عن المتعطل اذا عجز عن ايجاد عمل لنفسه وهى مسئولية تمتد فى الاسلام الى كفالـة الشيخوخة والعجز والأولاد الضعاف اذا مات عائلهم •

* * *

الرابع : اطمئنان الدولة على يسر العامل ورخائه • وقد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف بايجاد العمل للمتعطل بل طلب أن يعرف ما تصير اليه حاله ليطمئن عليه وهذا هو السمو الذى تفرد به الاسلام ولم تصل اليه شريعة من الشرائع أو نظام من الأنظمة • وما نظن العمال طمعوا فى مثل هذا •• ولكنه الاسلام دين الله ونعمته الجامعة لكل خير وسعادة •

الخامس : وهذا المبدأ الخامس أشار اليه الامام أبو حامد الغزالى فى كتابه « احياء علوم الدين » اذ ندب ولى الأمر بعد كل هذا لأن يزود العامل بآلة العمل • فللنجار آلة النجارين وللحداد آلة الحدادين وهكذا •• لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جهز الرجل بآلة العمل اذ أحضر القدوم ووضع لها اليد ودفعها اليه •• ولا يوجد فى العالم شريعة نصت على مثل هذا(١) •

والمفروض أن يتم تجهيز العامل الفقير بآلة العمل من أموال الزكاة حتى نضمن تحويله تدريجيا الى طاقة منتجة وزيادة طاقاته ودخله حتى يخرج من نطاق المتعطلين الى طاقة تضيف الى دخل الأمة •

والنبى صلى الله عليه وسلم حين يقول مشيدا بالعمل اليدوى : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وان نبى الله داوود كان يأكل من عمل يده » ••

أو يقول : « ان الله يحب العبد المحترف » ••

فهو عليه الصلاة والسلام يرشدنا الى دواء ناجع للبطالة •

ولعلنا فى مصر اليوم نعانى من الكثرة الكبيرة من الشباب الذى يأنف من العمل اليدوى ويؤثر الوظيفة الادارية أو الكتابية على العمل الفنى مما أثر على أفراد الشعب لا سيما بعد أن هاجر كثير من عمالنا الفنيين الى خارج البلاد •

مما يدعونا لأن نهيب بالمسئولين لادخال أنواع التعليم الفنى أو بعض أنواع الحرف اليدوية فى برامج التعليم الثانوى بما يسمح للطلبة بالالمام بشىء من الصناعات أو المهارة فى أى عمل من الأعمال اليدوية

---

(١) الاسلام لا شيوعية ولا رأسمالية للبهى الخولى ص ٧٩

العمـــل فى العـــالم الاســـلامى

منذ تأسيس الاتحاد الدولى لنقابات العمـــال العرب عام ١٩٥٦ على أساس عدم الانحياز وهو يعانى من التناقضات العنيفة .. فهناك :

١ ــ تيار عمالى يرغب فى الانضمام الى الاتحاد العالمى لنقابات العمال الحر الذى تأسس فى لندن عـــام ١٩٤٩ وتشترك اسرائيل فى عضويته ويمثل التيار الليبرالى الرأسمالى فى صفوف العمال .

٢ ــ وتيار ينخرط فى عضوية الاتحاد العالمى لنقابات العمال الذى تأسس فى باريس عام ١٩٤٥ ويمثل التيار الشيوعى فى صفوف الحركة العماليـــة .

٣ ــ وتيار يتمسك بالحياد الايجابى .

« وقد لمست فى كثير من الاجتماعات العمالية العربية بكل أسف غلبة الفكر الشيوعى المـــاركسى على القيادات العمالية العربية وهذا يمثل خطورة بالغة على العمال المسلمين والعرب منهم بوجه خاص .

وهل يخفى أن الأيديولوجية المسيطرة على الاتحـــادات العمالية الدولية واحدة ــ سواء رأسمالية أو شيوعية ــ وبصـــمات اليهودية التلمودية واضحة الأثر فى مفاهيم الصراع والانشطارية وتفسير الأحداث وسير الأمم فى هذه التبعية .

فالرأسمالية والمـــاركسية كلاهما من منبع واحد هو امبراطورية الربا التى أقامتها الصهيونية العالمية .. وما الطبقة العاملة الا أداة للتنفيذ .

ان سيطرة المفاهيم المادية على واقع الحركة العمالية الدولية هو أحد جوانب الخطر على الحركة العماليـــة فى بلادنا ولابد أن نبدأ خطوة التحرر وكسر القيـــود والتماس الأصـــالة والعودة الى منابعنـــا حتى نعيد تنظيـــم مجتمعاتنا الغربية وفق عقيدة الاســـلام »(١) ، لا سيما

---

(١) من بحث لأحمد عزت محنى فى عدد سبتمبر ١٩٧٧ من مجلة الدعوة القاهرية .

وقد أثبتت التجربة العملية والتطبيق فى كلا النظامين — الرأسمالى والشيوعى — الفشل المطبق والشقاء الغالب على مجتمعاتهما حتى أن اللورد كينز — طبيب الرأسمالية فى القرن العشرين — يقرر فى كتابه « النظرية العامة للعمالة والفائدة والنقود » :

« ان أهم الأخطاء البارزة فى اقتصادنا المعاصر اثنان هما :

أولا : الفشل فى تحقيق العمالة الكاملة .

ثانيا : التوزيع التحكمى الغاشم لكل من الثروة والدخل على نحو لا يحقق العدالة ولقد شهدت انجلترا من أواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٣٥ تقدما هائلا فى نظم الضرائب من حيث عدالة التوزيع فى أعبائها على كل من الدخل والثروة .. وقد استحدث من الضرائب على الايرادات والتركات ما كان جديرا به أن يقرب بعض الناس من بعض .. ولكن هذا لم يحدث بالقدر الكافى ..

ثم قال كينز : « بأن بعض أصحاب الرأى ينادون بمزيد من الضرائب لعل فى ذلك حلا للمشكلة .. ولكن يرد على ذلك بأن فداحة الضرائب تشجع على التهرب منها ومن ثم لا يعتبر هذا الحل فعالا بل لا يعتبر مأمون العواقب من النواحى الاقتصادية الخلقية ويتعين البحث عن غيره »(١) ..

وبعد نصف قرن من صيحات كينز واخوانه من الاقتصاديين الرأسماليين لا يزال العامل فى العالم الرأسمالى يلهث وراء المال ليحقق مستوى الرفاهية المزعومة التى تبشره بها وسائل الاعلام فى بلاده أينما توجه حتى أصبح فى عبودية رهيبة لكسب عيشه المرتجى لا تقارن بها عبودية عصور الرق والاقطاع .

وبينما الماركسية التى تتسمى باسم الاشتراكية العلمية وتصف الاسلام كدين بأنه مخدر للشعوب فى الوقت الذى يأمر فيه المولى عز وجل الرسول الكريم بأن يعلن فى صراحة قوله :

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ، ان أتبع الا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون »(٢) .

---

(١) الاسلام دين الاشتراكية من بحث الدكتور عيسى عبده ص ١٥٩ ..

(٢) الأنعام : ٥٠

كما يقول أن تتحمل رومانيا طويلا وتقف بعيدا عن الاصلاحات التى تجرى الآن فى دول شرق أوروبا •

وليس المجال أن تعلن المشروعات القيادية للمصانع التى لها شبه استقلال ، وليس كذلك هو مجال المدح والثناء للتجارب الاقتصادية فى الدول الاشتراكية •• انما هو مجال الكلمات القاسية التى تهز الرسميين فى الحزب من سباتهم ، ويعلن : « ان رومانيا لم تزل بلدا متخلفا » ••

ويذكر فى هذا الصدد أن صنوف الآلات التى صدرتها رومانيا فى سنة ١٩٦٤ كان يساوى الطن منها ٤٢٠ جنيها •

بالقياس الى ما يساويه فى بلغاريا من خمسمائة جنيه •

وفى فرنسا من ٩٦٨ جنيها •

وفى سويسرا من ١٧٢٤ جنيها •

وأن الفلاحين الذين يكونون نسبة تمثل أكثر من نصف السكان العاملين يعملون ثلث الوقت المخصص للعمل فقط ، ويقول : ان التخلف كان السبب فى ارتفاع أسعار الانتاج ارتفاعا ظاهرا الى ما يعادل ضعف البلاد المتقدمة اذا نظرنا الى الاقتصاد ككل •

وكان السبب كذلك فى أن انتاج العامل فى رومانيا أقل بمقدار النصف أو الثلثين من انتاج العامل فى ايطاليا وفرنسا وألمانيا الغربية •

ان الأيام عديدة تلك التى يطمئن فيها العامل الى الاحتفاظ بوظيفته ••

ومع ذلك لا يسهم فى الانتاج الاقتصادى الا قليلا ، •• هل يمكننا أن نحول المصانع الى مؤسسات خيرية ؟

ان ألفا وثلاثمائة وسبعين سلعة من الانتاج أسفرت عن خسارة تقرب من مائتين وأربعين مليونا من الجنيهات الاسترلينية(١) فى عام ١٩٦٦ » •

ويعلق الدكتور محمد البهى على ذلك فيقول :

« ان السلبية التى ترى فى مجال العمل الذى تؤجر عليه الدولة

---

(١) تيارات الفكر المادى التاريخى للدكتور محمد البهى ص ٥٠

فينفى كل أسباب الخداع فى الدعوة الى الاسلام من الوعود :. بوفرة المـال أو تأمين المستقبل عن طريق العلم بما سيأتى به الغد القريب أو البعيد ومن ادعاء التميز عن مستوى الانسـان لشخصه مما يحقق له التبعية فضلا عن القداسة بل ويأمر بالنظر والتفكر •

هذه المـاركسية تعد فى خداع سافر بغد أفضل لمجتمعها ، والغد لا يأتى الا بزيادة الفقر والحرمان بحيث أصبح المجتمع المـاركسى مجتمع المساكين الذين لا يستطيعون بحال ما أن يغطوا احتياجاتهم الى الخدمات بعد عبز أجورهم عن أن تفى بها بعد أن تملكت الدولة وسائل الانتاج واعتبرت العمل سلعة تخضع لقانون العرض والطلب حيث يوجد العرض منها أوفر دائما لا سيما العرض الاجبارى عندما تمنع الدولة انتقال العمل وتحبسه داخل الحدود •

وانى أنقل هنا اعترافا خطيرا عن مدى فشل التطبيق الاشتراكى فى العمل :

« لقد تحدث سكرتير الحزب الشيوعى الرومانى بمناسبة ما يسمى بالهجوم لمدة أربعة عشر يوما على نظام الاقتصاد فى رومانيـا وعدم كفايته ، كما نقلت حديثه مجلة الأكونومست البريطانية فى عددها الصادر فى ٢١ يناير سنة ١٩٦٧ ص ٢٢١ تحت عنوان « التفوق فى الاقتصـاد الاشتراكى » :

لا يمكننا أن نتحدث عن تفوق الاشتراكية على الرأسمالية طالما أن بعض الدول الرأسمالية المتقدمة تنتج أرخص أنواع السلع وأجودها • اننا عندئذ غير قادرين على أن نبرهن على هذا التفوق •

ان ضعف نظام الاقتصاد فى رومانيا يختفى وراء النسب النظرية والافتراضية فى التخطيط لزيادة النمو (الاحصاءات التخطيطية) •

وقد بدأ الرومانيون يدركون الآن أن هذا الضعف :

(أ) كما هو فى النوع وفى نفقات الانتاج •

(ب) هو أيضا فى كميته •

وقد أبدى سكرتير عام الحزب الشيوعى فى رومانيا (فى اجتماع ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ للجنة المركزية) عدة ملاحظات ، لا يمكن معها

ظاهرة لابد من وقوعها فيما تملكه الدولة من مصادر الثروة القومية وهذه السلبية هى التى تشاهد فى : قلة الانتاج ، وفى عدم جودته ، وفى كثرة نفقاته ، وفى عدم قدرته بالتالى على المنافسة فى سوق عالمية .

ان هذه السلبية ترجع الى المساواة فى الأجور بينما هناك (الاختلاف) فى الطاقات على العمل لدى الأفراد .

فصاحب الطاقة الدنيا على العمل ان رضى بالأجر المساوى لرفيقه فى العمل ، فان ذلك العامل صاحب الطاقة القوية معه لا يرضى بهذا الأجر ، ثم كذلك لا يرضى بالحافز المادى ان منح اياه لأن طاقته على الانتاج تهيىء له فى المباشرة الحرة أكثر من أجره وجزائه الاضافى وفى الوقت نفسه تشعره بقيمته كانسان يتميز بطاقته وخالقيته فى العمل وهذا أهم لديه من الجانب المادى .

وهنا يكون معيار العدالة الاجتماعية الذى تقيس به الدولة مستويات الأفراد معيارا غير عادل وغير مرض بالنسبة لبعض الأفراد على الأقل .. بل ربما يعتقد ذلك البعض أنه ينطوى على الغبن والظلم .

ان نظام الماركسية اللينينية فى الحكم ــ طبقا لفلسفتها ــ يتجاوز الأفراد والفروق الفردية بينها الى (الجماعية) فى العمل ، فهو يحشد للعمل كتلا بشرية وقلما يعير ما بين أفرادها من فروق اهتماما خاصا ، ويسوى بينها فى الأجر طالما يكون محيط العمل واحدا بغض النظر عن الخصائص الفردية التى تبرز فى العمل وتدخل فى قيمته ، ان كما أو كيفا »(١) .

والظلم الذى يشعر به بعض الأفراد من أجل عدم تقديرهم فى العمل يصير الى حقد فى النفوس على النظام نفسه ، ثم يتبلور فى الاهمال والتراخى فى العمل وقد يتحول الى انتقام التخريب فيما تملكه الدولة .

وأقرب مثال على ذلك ما نشاهده اليوم من استغاثة روسيا بأمريكا لتغيثها بالقمح بعد أن كانت روسيا من أكبر دول العالم المصدرة للقمح .

ان رأسمالية الدولة التى يقوم عليها الحزب الشيوعى والتسلط الماركسى تقصد الى بقاء (الحرمان) و (الشقاء) للطبقة العاملة ــ

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢

كخطة مستبدة — كى تحول دون تطلعات لبعضهم فى المنافسة على الحكم أو فى مباشرة الانقلاب على السلطة القائمة ، أن تحسن مستوى العامل وارتفع الى احساسه بالرغبة فى الاستمتاع بالحياة بعد ملء معدته •

ان العامل تحت التسلط المـاركسى اللينينى لابد أن يلهث فى سبيل لقمة العيش فقط ولابد أن تكون حياته كلها ونشاطه فيها وتفكيره فى مستقبله — ان كان يدرك له مستقبلا — لالتقاط هذه اللقمة من العيش التى لا يجدها الا من يد الدولة أو الحزب بمعنى آخر •• انها بعبارة أخرى استعباد لا مثيل له لخلق الله وتسخيرهم فى مقابل أدنى مستويات الحياة •

والنتيجة الطبيعية لذلك هى نقص الانتاج لأن العمل فى ظل رأسمالية الدولة وبعد الغـاء الملكية الفردية يصبح (روتينيا) وبدون دافع من النفس فتتفشى ظاهرة التواكل •

ومهما كان وقع الاكراه والتخويف نحو العمل أو الترغيب فيه فسيظل هذا العمل فى كمه أقل وفى نوعه غير جيد أو غير متقن وعندئذ لا يكون فائض انتاج للتصدير وان وجد فلا يستطيع المنافسـة فى الأسواق العالمية لانخفاض جودته ويفرضه على السوق المحلية عندئذ احتكار الدولة من جهة والحاجة المـاسة اليه لدى المستهلكين من جهة أخرى •

« ونتيجة لذلك سيظل حتما :

١ — النقص فى الانتاج •

٢ — والعجز فى ميزان المدفوعات •

٣ — وقلة الأجور •

٤ — وارتفاع الأسعار وبالتالى ضعف القوة الشرائية لدى العامل المستهلك ••

وهذه النتيجة بما لها من الجوانب الأربعة تؤدى بدورها الى :

(أ) بقاء مستوى المعيشة منخفضا لدى العمال •

(ب) وعدم وجود تطلعات الى حياة أفضل رغم ما تبذله الماركسية اللينينية من الحديث عن الغد الأفضل •

(جـ) واستكانة أفراد المجتمع وبقـائهم فى حظيرة التواكل على الدولة ••

والحزب هو الهدف الأخير لهذا التسلط الماركسى اللينينى .. وبمرور السنوات على هذا التسلط ربما يتحول التواكل على الدولة والحزب الى وثنية والى عبادة فليست العبادة الا خضوعا واستسلاما .

ولكن هنا خضوع اليأس واستسلام الذليل وليس خضوع المؤمن القوى لله تعالى »(١) .

ولقد قامت الماركسية على أساس محاربة التفرقة الجسيمة بين الناس التى أوجدتها الثورة الصناعية فى أوروبا بتضخيم رؤوس الأموال حتى أصبحت الهوة التى تفصل بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال سحيقة رهيبة وقد اتسم مسلك مجموعة الرأسماليين بالأنانية ومحاولة استغلال الطبقة العاملة .

لكن الماركسية عندما تقترح علاج هذه الفجوة — فيما تدعو اليه من تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق الغاء الملكية الفردية — تسلك كذلك مسلك الأنانية والتحيز لفريق من أفراد المجتمع هم العمال دون فريق آخر وهم أصحاب رؤوس الأموال .

فاذا كانت الرأسمالية أنانية مفرطة فان الاشتراكية الماركسية أنانية أيضا ولا تقل تطرفا عن الرأسمالية وكلا النظامين أوجد الصراعات بين أفراد المجتمع وأثار الأحقاد فى نفوس الناس وأدى الى ثورات دامية ..

بينما الاسلام الذى ينشىء مجتمعه على المحبة والترابط ويقيمه على مبدأ : « **وتعاونوا على البر والتقوى** »(١) يرى أن منفعة المال منفعة عامة لأفراد الأمة المسلمة ومن يستظل برايتها ..

واذا كانت ملكية المال ملكية خاصة فهو مع ذلك فى يد صاحبه بوصفه مستخلفا عليه من الله أو وكيلا عن صاحب المال الأصلى . ومعنى ذلك أن الاسلام لا يمنع الملكية الخاصة للمال ولا يحول دون المباشرة الفردية بل ربما كان يطلبها أولا ولكن يجب على من يملك المال ويباشر استثماره أن يراعى أن للآخرين من أفراد المجتمع حقا فيه يتعين عليه أداؤه .. : « **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** »(٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢ ، ٨٣ (٢) المائدة : ٢

(٣) الحديد : ٧

والمسلم ينفق عن طواعية واختيار لأنه يؤمن بأن الحياة الدنيا متاع الغرور وأن بعدها حسابا من الله .. وهو عبد الله يعمل بأوامره ويبتعد عن نواهيه ويطمع فى عفوه وفى ثوابه والحياة الأبدية فى نعيم الله التى هى خير من كل ما يجمع فى الحياة الدنيا .

« وبالايمان بالله .. وباليوم الآخر .. لا تقوم مشكلة اجتماعية كتلك التى قامت فى المجتمع الغربى الصناعى بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال فى مصانعهم وبالتالى لا يحتاج الأمر الى حل كمثل الحل الذى تفرضه الماركسية اللينينية .

ان الأثرياء من المؤمنين بالله لا يتحول ثراؤهم مهما عظم — يوما ما — الى (رأسمالية) لأن الرأسمالية ليست هى ملكية المال الوفير ولكنها الاساءة الى الغير بسبب ملكية المال قل أو كثر .

(فالربا) هو رأسمالية وان قل ماله .

وثروة الصحابى عبد الرحمن بن عوف وكذا ثروة الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنهما على ضخامتها ليست رأسمالية ، لأنهم لم يسيئوا استخدامها ولم ينتج بسبب ضخامتها ضرر لأحد . بل على العكس .. كانت منفعتها عائدة على المسلمين جميعا . وأيضا فان المؤمنين مطالبون فى أموالهم بالانفاق منها على غيرهم من أفراد الأمة انفاقا لا يقابله الا وجه الله ، ولا ينفقون منها على أنفسهم الا بقدر حاجتهم الى الانفاق :

« .. ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »(١) .

والعفو هو الفضل أو مازاد عن الحاجة وانفاق هذا الفضل فى الاسلام يكون بطيب نفس وباختيار صاحب المال لأن الله ضامن له الاخلاف علاوة على الأجر : **« وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »(٢) .**

ويقول المفكر الاسلامى الكبير مالك بن نبى فى كتابه « المسلم فى عالم الاقتصاد » :

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩ — والآية من سورة البقرة : ٢١٩

(٢) سبأ : ٣٩

« اننا عندما نحدد طبيعة الحاجة التى يلبيها الانتاج نحدد طبيعة التوزيع وحجم شبكته • والحاجة من الناحية الاقتصادية نوعان : الحاجة التى يغطيها مال ، والحاجة التى تغطيها ارادة حضارية ، مثل الارادة التى فرضت الزكاة للفقير والمسكين وابن السبيل الذين ليس لهم مال يغطون به حاجاتهم اليومية •

ويتقرر على أساس تلبية الحاجة كل أسلوب الاقتصـــاد ، اما طبقا لطبيعة المـــال الذى يقتضى نظما خاصة بتوزيع محدود يحده الامكان المـــالى ، أو طبقا لارادة حضارية تفرض شبكة توزيع شاملة تشمل كل السكان منذ اللحظة الأولى •

فاذا تقرر هذا النوع الأخير لتلبية الحاجة دون اخضاعها لشرط الامكان المـــالى ، فنستطيع مبدئيا رسم شروط الديناميكا الاقتصادية فى صورة مسلمتين :

١ ـ لقمة العيش حق لكل فم •
٢ ـ العمل واجب على كل ساعد •

فالمسلمة الأولى يفرضها الاختيار لمبدأ معين يلتزمه المجتمع ويسجله فى دستوره كأساس لعقده الاجتماعى »(١) •

أما المسلمة الثانية فليست اختيارا بل هى ضرورة تفرضها المسلمة الأولى كشرط لاستمرار التفاعل بين الانتاج والاستهلاك •

ولقمة العيش لكل فم ليست مجرد غاية أخلاقية أو شعار يرفعه الاسلام ـ كما تفعل النظم الاشتراكية ـ « بل نقطة انطلاق فنية وأخلاقية معا يقرهـــا ضمنا الاسلام فى مبدأ الزكاة وتفرضها اعتبارات اقتصادية استثنائية ترمى الى خلق جو اجتماعى تنمو وتتحرك فيه كل الطاقات فى عمل مشترك من شأنه أن يغير الأوضاع النفسية فى الفرد وملامح الحياة حوله •

بحيث يكون العمل المشترك أولا وقبل كل شىء المدرسة التى تكون المسلم الجديد الذى يستطيع مواجهة كل الظروف الاستثنائية مثل التخلف لأن مدرسة العمل المشترك تعلمه أن الارادة اذا حركت الانسان تجعله

---

(١) المسلم فى عالم الاقتصاد ـ لمالك بن نبى ص ٩٦

يكتشف الامكان . فالوطن أو المجتمع المسلم الذى يتحول الى مصنع سرعان ما يكتشف أن الامكان الذى ينتظره فى يد الغير لتغيير مصيره هو فى يده منذ الآن .

ان الارادة تكتشف الامكان ..

هذا القانون فى المجال الاقتصادى هو فى المجال النفسى ما تشير اليه الآية الكريمة : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** »(١) وما نعبر عنه فى المجال الاجتماعى بقولنا : ان الارادة الحضارية تصنع الامكان الحضارى .

فالعالم الاسلامى متى تكونت لديه ارادة واضحة للتخلص من التخلف سيجد أولا فى المجال النظرى أن اختياره ليس محدودا بالرأسمالية ولا بالماركسية وأنه بالتالى يستطيع التعويض للاستثمار المالى المفقود لديه بالاستثمار الاجتماعى الموجود على أساس المسلمتين المعروضتين فى هذا الفصل سواء أكان ذلك فى نطاق مخطط مرحلى خاص بظروف ما أسميناه الاقلاع أم كان المخطط يعنى أيضا الاستمرار اذا ما رأى المجتمع مصلحته فى ذلك .

واذا كان هذا أو ذاك فالمجتمع العصامى الذى يقلع بمجهوده الخاص يدرك أن القصور الذى يفرضه التخلف فى المجال الاقتصادى انما هو نتيجة لتصوره الأشياء لا لطبيعة الأشياء ذاتها وسوف يرى طاقاته الذاتية قادرة على تغيير كل الظروف فى جو يسوده الاخاء والطمأنينة .

واذا ما كان لنا درس نستخلصه من تجربة الصين فانما هو أن المعارك الاقتصادية عندما تدور رحاها تدور حول قطب القيم الأخلاقية ، وان وسعنا المصطلح قلنا .. حول القيم الثقافية .

والمجتمع الاسلامى أجدر من يحقق لنفسه وللانسانية التجربة التى تعيد الى عالم الاقتصاد أخلاقياته ويتلافى بذلك الانحرافات الاباحية التى تورطت فيها الرأسمالية ، كما ينجو من ورطة الماركسية المادية التى سلبت الانسان ما يميزه عن الآلات والأشياء .

وأجدر من يقوم بهذه التجربة الرائدة للبلاد هى مصر والجزائر

---

(١) الرعد : ١١

والمغرب التى دخلت فعلا المعركة الاقتصادية على نهج معين تستطيع توسيع أفقه بخبرة جديدة وتطعيمه بروح اسلامية تعيد المال الى وظيفته كخادم مطيع للمجتمع لا كسيد له وترفع عن الانسان الأسر الذى قيدته به المادية الماركسية التى أقحمته فى عالم الاقتصاد كمجرد آلة للانتاج »(١) .

ويستطرد مالك بن نبى ليثبت أن الاسلام يقيم مجتمع انتاج ويطالب المسلم بأن يكون عضوا عاملا فى المجتمع يعرف الواجب كما يعرف الحق وعليه أن يقدم الواجب أولا قبل أن يسأل عن الحق .

ويقدم « ابن نبى » الدليل من قصة الرجل الذى أتى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب « لقمة عيش » كان من حقه أن يأخذها من المجتمع بنص القرآن الكريم من مال الزكاة وكان النبى صلى الله عليه وسلم أدرى الناس بتطبيقه كما كان عليه السلام أجود من الريح المرسلة .

ولكن أعمال النبى تشريع لأمته فأشار على من حوله من الصحابة رضوان الله عليهم بأن يجهزوا هذا الفقير ليحتطب وأشار على الرجل بأن يحتطب ليأكل من عمل يده .

فاذا حللنا هذه القضة من حيث أبعادها الخلقية نرى كيف يحل الرسول صلى الله عليه وسلم أزمة اجتماعية تعرض عليه فى صورة متسول من المساكين فيفضل صلوات الله عليه حلها فى نطاق (الواجب) على (الحق) .. أو اذا قدرنا الأبعاد الاقتصادية فاننا نرى النبى عليه السلام يفضل الحل فى نطاق (الانتاج) .

كما نراه صلى الله عليه وسلم فى موقف آخر يعطى لصحابى ثم يتكرر الطلب فيتكرر العطاء ثلاث مرات ثم يأتى التوجيه فى صورة النصيحة الاسلامية : « ان اليد العليا خير من اليد السفلى » ..

اليد التى تعطى خير من اليد التى تأخذ .. هذا هو التوجيه فان شئنا فسرناه خلقيا أو اقتصاديا .

هذا التوجيه الى الانتاج يحمى المجتمع الاسلامى من أن يكون مجتمع استهلاك لأنه اذا رجحت كفة الاستهلاك فى مجتمع فهو مجتمع ينهار .

---

(١) المسلم فى عالم الاقتصاد لمالك بن نبى ص ١٠٠ ، ١٠٢

« وتحويل التركيز من (الحق) الى (الواجب) ليس بالأمر الذى يأتى عفويا أو صدفة لأنه تحويل لعـادات وطبائع منسجمة مع ما فى الانسان من ميل طبيعى الى منطق السهولة ، مدعما من ديماجوجية القرن العشرين التىنصبت من (الأنا) وثنـا جديدا يعبده الفرد فى المجال السياسى باسم الحرية ، وفى المجال الاقتصـادى باسم الحقوق • وحتى فى المجـال الرياضى يعبد (الأنا) المجسد فى ملاعب الرياضة فتحويل التركيز الموروث ليس اذن بالأمر السهل بل لا يتأتى الا بصراع مع كل التيارات التى تنمى الأنانية بشكليها ، « الأنا » و « نحن » ••

وربما تقوم فى وجه ثورة ثقافية ـ من أجل تعديل التركيز فى صالح الواجبات ـ ثورة مضادة لتدعيم البناء المنحرف •

فهذا ما حدث بالضبط فى الصين عندما قامت فيها محاولة لتخفيف ضغط الحقوق على الانتاج فسرعان ما قامت فى وجهها مطالبة بمزيد من الحقوق ، فى حصة الأرز مثلا ، وفى الأجور ، وغالب الظن أن هذه المشاغبة كانت موجهة من الخارج من طرف جهـات تريد تعويق حركة التنمية فاستعملت ضد العمـال القائمين بتنفيذ خطة (الوثبة الى الأمام) ما فى نفوسهم من ميل طبيعى الى السهولة •

انه لمن أشد المكر أن يحطم الانسان أو يعطل نفسه بيده دون أن يشعر لأن المـاكر استطاع أن يخدعه بلغة الحقوق والحريات »(١) •

ونفس الشىء الذى يشير اليه مالك بن نبى هو ما حدث فى مصر عندما شرعت فى اصلاح مسارهـا الاقتصادى فكانت عمليات التخريب الرهيبة فى يناير سنة ١٩٧٧ التى قامت بها عناصر مدسوسة فى صفوف العمال لتعمل ضد مصالح العمـال وهو ما يأباه الاسلام الذى يرمى الى اقامة مجتمع الاخاء •• مجتمع الانتاج لصـالح الجميع بلا ضرر ولا ضرار •

واننا فى هذا الباب من الكتاب نتناول موضوع العمل فى العالم الاسـلامى ككل لأن الله تعـالى يقول : **« ان هذه أمتكم أمة واحـدة وأنا ربكم فاعبدون »(٢)** •

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٧ ، ١٠٨ (٢) الأنبياء : ٩٢

ويقول سبحانه وتعالى : « **ورحمة ربك خير مما يجمعون** »(١) .
كما يقول عز من قائل : « **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا** »(٢) .

فاذا كنا أمة واحدة حقا واذا كنا نؤمن بأن ما عند الله خير وأبقى وأعظم أجرا مما نجمعه فى هذه الدنيا ..

واذا كنا نؤمن حقا بأن « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا » كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم وبأن ما يصيب المسلم فى أى قطر من أقطار الاسلام لابد أن يجد له صدى عند أخيه المسلم .. لما كان فى العالم الاسلامى اليوم فقير ولا محتاج ..

ان العالم الاسلامى يتمتع بموارد ضخمة للثروة بعضها كان مخبوءا فى باطن الأرض حتى أذن الله أن يظهر وبعضها كشفنا عنه بفضل التقدم العلمى وبعضها نمر عليه كل يوم دون أن نحاول اعماره أو استغلاله ، كعشرات الملايين من الأفدنة من الأرض الصالحة للزراعة فى السودان وسوريا والعراق وغيرها ..

هل يعقل أن نترك أكثر من مائة مليون فدان فى السودان من أجود الأراضى الزراعية دون أن تزرع ؟ .. وذلك لحاجة مسلمى السودان الى بعض المال لتمهيد الأرض وتنظيفها من أعشابها وأشجارها لتصبح صالحة للزراعة أو شراء بعض الآلات الرافعة لترفع الماء من الأنهار ! .

وهل يعقل أن يتسبب نقص السيولة النقدية فى السودان فى أن يعيش السودان فى فقر بينما اخوة مسلمون يكنزون الذهب والفضة ويا ليتها فى أيديهم بل فى أيدى أعدائهم يستغلونها ضد الاسلام وفى ابادة المسلمين فى حروب بالسلاح وفى حملات التبشير الرهيبة التى تحاول أن تقتلع الاسلام من بلاده ؟ ! ..

ان المال فى يد المسلم أمانة لخير الانسانية .. يقول تعالى : « **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** »(٣) .

---

(١) الزخرف : ٣٢ (٢) المزمل : ٢٠
(٣) الحديد ..

فذلك الاستخلاف هو النيابة التى جعلهـا الله لخليفته فى الأرض على ما قرره أئمة التفسير .

لكن الكثيرين من المسلمين ممن أفسدت تفكيرهم النظريات الغربية التى سرت سمومها فى بلادنا فى ظل الاستعمار الغربى العسكرى سابقا والثقافى حاليـا .. يحسبون أن هذا القول من قبيل الفروض النظرية لا من أسس القواعد العملية التى تؤسس عليها المعاملات بين الناس فى واقع الحياة ..

لقد نسى الكثيرون مهمة الانسـان الأصلية وهى عبادة الله تعالى ونسوا تبعا لذلك أن الله انما خلق المـال ليستعين به الانسـان على عبادته لا ليكون له غاية .. واذا نسوا الأصل فقد زايلهم ما كان له فى الضمير والذهن من وجدان وبواعث واهتمام وتقديرات فى الفكر .. وحسبوا أن قد جاءوا الى هذه الأرض سدى أو عبثا ليأكلوا ويتمتعوا كما تأكل الأنعـام .. أو جاءوا ـ على حسب ما يخدعون به أنفسهم ـ ليؤدوا للحياة رسالة العمـل وبطولة الانتاج والتسابق فى جمع المـال الذى هو قوة ومجد الدنيـا وليبذلوا فى سبيل ذلك ما استطاعوا من طاقات بناءة ثم يصبح من حقهم بعد ذلك أن يسرفوا ويتمتعوا ويبلغوا ما يزعمون من مجتمع الرفاهية مجتمع الاستهلاك .. الى آخر ذلك الزيف الذى يحاولون به ستر تفاهة الحياة بعد أن جردوهـا من عبادة الله التى هى حقيقة معنى الحياة فانقلبوا يموهون بمثل هذه الأقاويل لعلهم أن يهبوا لحياتهم معنى أو يجعلوا لوجودهم قيمة .. فاذا كان من بين هؤلاء من لا يرى بأسا بالتدين فعبادة الله على هامش ذلك كله ..

وعلى الطرف الآخر تقوم ثورات الفقراء الذين تسللت الى صفوفهم مفاهيم الشيوعية ويحلمون بالجنة الموهومة فى جحيم الشيوعية ويحسبون أن مصادرة الملكية الفردية هى التى ستحقق لهم العدالة الاجتماعية وينسون أن تحريم الملكية هو حرمان للفرد من حصيلة عمله ولا يمكن أن يكون أمرا عمليـا مقبول العدالة صـالحا لحمل أوضـاع الناس عليه دون الوضع الذى تمليه فطرة الله فى الأشياء وتقرره نصوص الدين بمثل قوله تعـالى : « **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيـه** »(١) .

---

(١) الحديد : ٧

أفرادها وتعددت مصالحها أصبح لا يعول فيها على مجهود الفرد مهما كان قويا بل لابد من تعاون الفرد مع غيره لتتكامل الجهود وتتضافر الهمم فى بلوغ رفعة الأمة الاسلامية واحلالها المركز اللائق بها بين الأمم كقوة يحسب حسابها وليست كما مهملا ومصدرا للمواد الخام تتحكم فيها الدول الصناعية المتقدمة .

وهذا هو أمر الله لنا :

« وتعاونوا على البر والتقوى »(١) .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(٢) .

فهل آن لنا أن نسعى الى ايجاد التكامل الحق بين دول الأمة الاسلامية ؟

لطالما سمعنا دول العروبة ودول الاسلام تتنادى الى أنواع من التكامل الاقتصادى أو التكامل الثقافى ويترنم كتابها وأدباؤها بهذه النغمة المحببة الى النفوس دون أن نرى ذلك يخرج الى واقع الحياة العملية مع ما نرى من ضعف الكيانات الصغيرة والاتجاه فى عالم اليوم الى التكتلات السياسية والاقتصادية الضخمة ..

لاشك فى أن قادتنا ومفكرينا يدركون هذه الحقيقة فما الذى يمنع من الاتجاه الى التنفيذ ؟

أهو افتقاد الثقة بين دول الاسلام ؟

أهو ضعف فى الايمان بالمبدأ ؟

أهى مطامع الدنيا واختلاف المصالح المادية ؟

وهل نسينا قوله تعالى : **« ورحمة ربك خير مما يجمعون »**(٣) .

صدقونى لن تعز الأمة الاسلامية الا بالعودة الى كتاب الله وشريعة الله !

« فان العزة لله جميعا »(٤) .

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »(٥) .

---

(١) المائدة : ٢
(٢) التوبة : ٧١
(٣) الزخرف : ٣٢
(٤) النساء : ١٣٩
(٥) المنافقون : ٨

ولن يتم التكامل الذى ننشده أو الوحدة التى أمر الله بها المسلمين الا اذا أخذنا بأسبابها التى بينها كتاب الله وأولها العلم وان قول الله تعالى : « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** »(١) انما يوحى بأمرين هامين :

أولا : ضرورة تطبيق أحدث الأساليب العلمية وفق ظروف العصر الذى نعيشه لكى يسير التقدم بخطى سريعة ولقد أصبح فى عصرنا هذا ما يميز الشعوب المتقدمة من الشعوب المتخلفة هو درجة ما بلغته من العلم الفنى أو (التكنولوجيا) كما يسمونه .

ثانيا : وجوب تزويد العامل المسلم بالقدر المناسب من المعرفة والتدريب بما يؤهله لاتقان عمله .

ان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا عمل أحدكم عملا أحب الله أن يتقنه » .. وان فى ذلك دعوة صريحة قوية للاهتمام بالتعليم بوجه عام والتعليم الفنى بوجه خاص .. وهنا أيضا اشارة الى ما يتعين على البلاد المتخلفة أن تقوم به من أجل الخلاص من تخلفها لأن من أكبر عوامل الضعف فى هذه البلاد هو عدم توافر الأيدى العاملة المدربة على مختلف المستويات .

ان توافر هذه الخبرات الفنية هو الذى سيدفع عجلة التنمية لتدور بأقصى سرعتها أو بالسرعة التى تتناسب مع العصر الذى نعيش فيه .. فلا نترك هذه البحار التى تطل عليها دول المسلمين دون استغلال ونشكو من أزمة فى اللحوم وكأننا لم نسمع فى كتاب الله قوله تعالى : « **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها** »(٢) .

وعلينا أن نمتلك الأساطيل التجارية التى تمخر هذه البحار لتنقل منتجاتنا وتحمل الينا حاجياتنا استجابة لقوله تعالى : « **وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** »(٣) .

ولا نترك هذه الأراضى الواسعة بورا بغير استغلال ونتعرض لحصار القمح ونذل تحت حاجتنا الى حبوب الغذاء ونكون معرضين

---

(١) الزمر : ٩ (٢) النحل ١٤ (٣) النحل : ١٤

للتهديد بالمجاعة لو حاولنا الاستقلال بارادتنا ورأينا فى التصرف بثرواتنا ..

وفى ختام هذا الباب لا يفوتنى أن أذكر الضرورة الملحة للسماح بانتقال العمل فى أرجاء العالم الاسلامى .. وانى ليأخذنى العجب لرعب الذى يستولى على بعض دول الاسلام من هجرة اخوان مسلمين لهم ليعملوا فى بلادهم ويساعدوا فى استغلال ثرواتها وزيادة الدخل القومى بها .

ألم يسمعوا بالهجرة الى كندا والولايات المتحدة وأستراليا ؟ ألم يسمعوا بما تقدمه هذه الدول وغيرها من مساعدات ومغريات للمهاجر اليها حتى يعمل ويفيد ويستفيد ؟

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « **ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم** »(١) .

فالهجرة المحتسبة عند الله ليست فرارا دافعه الخوف وانما هى ايمان بحق الانسان فى حرية العقيدة وحرية العمل وايمان بواجب الانسان فى الحياة .

ولما كانت الأمة الاسلامية أمة واحدة كما أسلفنا وقد استجاب المهاجرون لدعوة الله فان واجب المهاجر اليهم ألا يضيقوا باخوانهم المهاجرين بل يشعرونهم بأنهم أشقاء لهم واخوة تربطهم رابطة الدين والعقيدة : « **والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم** »(٢) .

والحث على الهجرة نلمسه فى روح التشريع الاسلامى الذى يأبى أن يذل المسلم .. ومن يرضى المذلة والخضوع للطغيان ويقول : « **كنا مستضعفين فى الأرض** »(٣) يأتيه الجواب المفحم : « **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** »(٣) .

ويؤمن المولى عز وجل من هاجر فى سبيل الله بقوله : « **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** »(٤) .. يجد الطرق الكثيرة لاكتساب الحياة ..

---

(١) البقرة : ٢١٨ (٢) الحشر : ٩
(٣) النساء : ٩٧ (٤) النساء : ١٠٠

وعندما هاجر المسلمون الأوائل الى المدينة المنورة تاركين أموالهم وديارهم وكانت الأرض وزراعتها فى يد الأنصـــار قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه وان أبى فليمسك أرضه » •

وواضح أن المقصود من هذا الحديث من كان يملك فوق حاجته ومن يعيى عن زراعة جميع ما كان يملك •

وكم فى بلاد المسلمين من بلاد لا تستطيع أن تستغل ثرواتها لنقص الأيدى العاملة لديهـــا فتترك رؤوس أموال ضخمة معطلة بغير استغلال مع أن استغلالها سيعود بالخير عليها أولا بما يزيد من الدخل القومى وبما يضاعف من انتاجها وبما يحقق رسالة الانسان التى كلفه الله بها باعمار هذه الأرض واستخراج خيراتها •

ان حرية العمل فى العالم الاسلامى جزء لا يتجزأ من شريعة الله التى نعتنقها وهى خير استثمار للقوى البشرية وهى السبيل لتحقيق العمالة الكاملة فى العالم الاسلامى •

كما أنها السبيل لتجديد روابط الاخاء الحق بين المسلمين فى أنحاء العالم فتتوحد أمتهم وتنمو أواصر المحبة بينهم وتقوى شوكتهم ويحتلوا المكان اللائق بهم تحت الشمس •

* * *

« فلنعلم أن ما بين أيدينـــا هو الحق الأزلى الذى لا يلبث أن يغدو فى ضمائرنا قانونا ذا فاعلية وايجاب اذا المرء عمق له باطنه وكشف ما فيه من ملكـــات الرؤى والاستبصـــار .. هنالك يتحدد فى الذهن والضمير وضع الفرد فيما يحوز من مال الجماعة بأنه وضع النائب أو الوكيل وليس وضع المـــالك المطلق ولا وضع الحيوان الأعجم أو الآلة الصماء »(١) .

وهنا يدرك المرء معنى « مال الجماعة » فى فقه الاسلام .. انه مجموع اموال الأفراد لأن الجماعة أو الأمة هى مجموع الأفراد ذوى الارادة .. وهنا يدرك المسلم أنه مسئول أمام الله فى تصرفاته فيما بين يديه من أموال وتتضح أمامه مسئولية الأمة المسلمة ـــ الأمة الواحدة ـــ عن كل افرادها أينما كانوا .. ألم يقل عمر بن الخطاب الخليفة الراشد : « اذا عثرت بغلة بالعراق لسئلت عنها لم لم (٢) أسو لها الطريق » ..

هذا هو قول الخليفة الراشد صاحب الحق فى التشريع للمسلمين .. هو يرى أنه مسئول ليس عن المسلمين فحسب بل عن دوابهم لم لم يمهد السبل الصالحة حتى لا يصيب هذه الدواب سوء فيكون هو ـــ بوصفه خليفة المسلمين ـــ مسئولا أمام الله ..

وان المـــال فى يد المسلم مسئولية سيسئل عنها يوم الحساب من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟

ومن أمانة الاستخلاف أن يوجه المـــال لصالح المسلمين لا الى مصارف اللهو والتلف والبوار .

« ان الترف مرض خبيث من أمراض الغنى ويسر العيش وفراغ الحياة من الأعمال والواجبات والاسراف فى المتاع وبه تتحول الرجولة والأنوثة الصحيحتان الى رخاوة وميوعة وأذواق مريضة وطباع منحرفة فتتعطل قواهـــا وتصير كالأرض البور التى لا نفع فيها بل تكون من أسباب الضرر المحقق .

والاستمتاع بطيبات الحياة وزينتها التى أخرج الله لعباده أمر

---

(١) الاشتراكية فى المجتمع الاسلامى للبهى الخولى ص ١١٦

(٢) الأولى بكسر اللام وفتح الميم والثانية بفتح اللام وتسكين الميم

طبيعى مباح أو مطلوب ما دام من غير اسراف ولا خيلاء ولا انحدار مع طاعة الشهوات والأهواء ..

فاذا أسرف فى المتاع وركنت اليه النفس دائما وآثرته على حياة الخشونة وأداء الواجبات والأعمال النافعة فقد استحال الى ترف ومرض وضعف وبوار .. والى ذلك يشير قول القرآن الكريم :

« ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا »(١) .

فالمتاع الذى ينسى الواجبات نحو الله والوطن يسلم النفوس الى البوار والضياع ، فهو سوس الحضارات ومدمر قوى الأمم وجالب خرابهـا وتبابهـا . وقد ذكر القرآن أن المترفين هم من أدوات انتقام الله من الأمم الظالمة التى بطرت معيشتها وخالفت عن أمر ربها فقال :

« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »(٢) ..

وطبيعة الترف تحمل على الضيق بحياة العمل والكدح حتى تضمر قوى الانتاج والكفاح والمقاومة وحب المغامرات وتتحول النفوس الى أدوات مستهلكة غير منتجة ومتبطلة غير عاملة »(٣) ..

لذلك كره الاسلام الترف وجعله قرين الفسق والكفر وحبب الى أتباعه العمل والكدح لأن العمل سلاح خطير لا يقل خطرا عن سلاح الحرب بل انه نوع من الجندية والرباط فى سبيل الله وفى سبيل شرف الوطن وحفظ كيانه وليس الجندى هو حامل السلاح فى الميدان فقط بل كذلك من يقف وراءه ويحمى ظهره ويصنع له عدته وسلاحه وذخيرته وطعامه ولباسه ويكفيه رعاية أسرته وأولاده ويشترك فى معركة التعمير والتشييد وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : « من جهز غازيا فقد غزا » .

والاسلام اذ يؤكد على قيمة العمل وأهميته الى الحد الذى جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمجمد منا يوم القيامة » .. فهو — أى الاسلام — يجعل الأولوية للعمل الجماعى ذلك أن الأمم وقد تكاثر

---

(١) الفرقان : ١٨ (٢) الاسراء : ١٦

(٣) المادية الاسلامية وأبعادها لعبد المنعم خلاف ص ١٧١